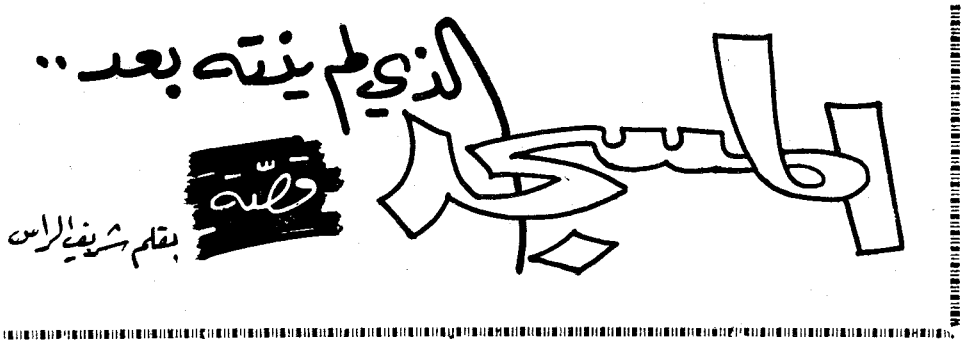

المسجد الذي لم ينته بعد..

قصة

بقلم شريف الراس

المسجد الذي لم ينته بناؤه بعد مسجد عظيم ، واسع جدا ، ومتناسق الاصول ، بحيث يمكن القول : انه سيكون مفخرة عمرانية لبلدتنا اذا شاء الله له ان يتم وتنهض مآذنه لتعانق الغيوم . ولكن الله لم يشأ بعد ان يستكمل هذا البناء نهوضه ، فهو ما يزال حتى اليوم « تحويشة » واسعة ، تكاد تشبه طللا قديما لا طعم له ، يمثل فكرة عابرة مخنوقة في مهدها . فجدران الاروقة ترتفع مقدار قامة او تكاد ، وجدران الحرم تصل حتى منبت القبة ، اما المئذنة فلا تزال في بدايتها ، بضع درجات لا تزيد. وعموما فان هذا المسجد يشبه حاكورة كبيرة لزراعة الاعشاب ذات القدرة الذاتية على الانبات ، دون أية عناية بشرية . ثم ان حقولا صخرية تمتد حول المسجد المهجور فتزيد من وحشته ، فوق هذه الهضبة المشرقة على المدينة من طرفها الغربي . ورغم ان الهواء النقي انما يفد الى مدينتنا من تلك الجهة فان احدا لم يهتم بالسؤال عن سعر المتر المربع من الارض هناك ، بل لم يخطر في بال اي من العقلاء ان يحلم ببناء بيت في تلك الحقول البعيدة ... ولهذا فقد ظل المسجد مهملا وحيدا . يقال ان السلطان عبد الحميد هو الذي امر ببنائه فوق هذه الهضبة الرائعة . وفي رواية اخرى ان الذي بدأ بهذا المشروع العمراني هو احد الدراويش الصالحين ، كان قد اتيح له ذات يوم ان تسمو درجته بين تنابلة السلطان عبد الحميد حتى وصل الى مرتبة « مفسر أحلام يلدز » .. ويقال انه استطاع ان يفك سحرا كاد يصيب السلطان بعاهة الفالج ، فكوفيء باموال لا تحصى واراض زراعية واسعة فياضة الخير . وبسبب من مغالاة هذا الدرويش في هوايته بشؤون العالم الاخر ، فقد رصد كل امواله لبناء هذا المسجد ، واوقف كل اراضيه لخير المسجد ومصروفاته . لولا انه حين مات ترك وراءه ورثة مصابين بهواية من نوع اخر ، هواية واقعية ان صح التعبير . فتقاسم هؤلاء الورثةالاموال والارزاق .. وتجمدت اعمال البناء . وبما ان فرنسا ـ منذ احتلت البلد ـ اصدرت قرارا قاطعا يحرم على الناس القيام باي عمل انشائي او عمراني في بلدتنا ـ وذلك للحفاظ على طابعها العربي السياحي كما جاء في مقدمة القرار ـ فقد ضاع ورثة الدرويش الكبير وراء ستار هذا القرار . لا بل انهم بعد ان باعوا الارث وتقاسموا المغنم غيروا اسماءهم والكنية وتوزعوا هاربين في اطراف الارض . ثم ان الناس ، عموما ، كانوا في شغل عن المسجد واوقافه والورثة اللصوص المارقين . فقد كانت مآسي صراعهم اليومي مع فرنسا تشغلهم عما هو اهم من ذلك بكثير .. وهكذا مع الايام ، اصفرت الاحجار وكسا بعضها الطحلب واصبحت ساحة المسجد العتيد ملعبا للتلاميذ الهاربين من مدارسهم ... واحيانا كانت قاعة الحرم ـ وهي عالية الجدران بشكل عام ، ولا ينقصها الا القبة والبلاط والنجارة والزجاج وبعض المفروشات حتى تصبح حرما حقيقيا ـ ترد في سجلات وقائع بعض الجرائم الاخلاقية والافعال المنكرة . ذلك لان المسجد كان لا يزال في ظاهر البلدة بعيدا عن اعين الرقباء . وربما كان هذا ما أغرى الحشاشين وغواة الشذوذ الجنسي ان يفضلوه على اي وكر آخر ... وحين تتالت الفضائح افاق « المجتمع » على دعوة صارخة : « يجب انقاذ المسجد فورا ... يا لسمعة الدين » .. وهذا ما ادى الى تاليف لجنة ، اسموها آنذاك « لجنة انقاذ جامع الدرويش » ، من بعض الشيوخ وتاجر كبير ممن يوصفون عادة باهل الخير والاحسان ، رغم انه لا يصلي ابدا . ولم تضم اللجنة اليها ملحدا واحدا من الاطباء والمهندسين ـ مثلا ـ .

وما ان بدأت اللجنة نشاطها حتى استجاب لها « المجتمع » استجابة تفوق كل تصور . واخذت التبرعات المالية تنهال وتتراكم ، اما الفقراء فقد تبرعوا بالمساهمة في اعمال البناء بمجهودهم العضلي . واصبح جامع الدرويش محور الاحاديث الهامة في البلدة كلها .. ربما كان ذلك لان موجة من الشعور الديني المشبع بحدة الايمان الرهيب ، قد اجتاحت الصفوف جميعا آنذاك ، بعد ان آمن اهل البلدة بان جيشا من الملائكة ، تعداده ثلاثمائة ملاك ـ وفي رواية اخرى خمسون الف ملاك ـ كان يحارب في صفوفنا ، ولهذا انتصرنا على الافرنسيين . والواقع ان الذين رأوا جيش الانصار الملائكي هذا عديدون ، ولذلك لا يمكن الشك في الموضوع ، لولا ان بعضهم رأى الملائكة الانصار بعمامات بيضاء وعباءات خضراء ، بينما البعض الاخر رأوا عمامات الملائكة باللون الاخضر والعباءات هي البيضاء ، وفريق ثالث رأوا الملائكة ولا يتذكرون الوانهم . وعموما فان احدا لم ير الملائكة باجنحة . وليس كل ذلك بمهم ما دام أحد المجاهدين قد اقسم بان واحدا من هؤلاء الملائكة سقاه ماء بيده .. ثم اصبح شاربو الماء من يد الملاك المجهول عديدين في اليوم التالي ...

وعلى كل حال فقد جاءت صرخة لجنة انقاذ جامع الدرويش مصاقبة للموجة الدينية الرهيبة التي اجتاحت البلدة من اقصاها الى اقصاها .. واخذ النحاتون ينحتون ، وشرع البناؤون يشيدون . واصبح اسم التاجر الكبير هدفا للحمد والثناء . فقد كان يشرف على اعمال البناء والتبرعات والامور الإخرى بنفسه . حتى ان « المتزمتين » تناسوا نقطته السوداء في مجافاته الصلاة وتحاشيها ، واصبحوا يمجدون نشاطه ودأبه في سبيل البر والاحسان وتعمير بيوت الله . لا بل ان واحدا منهم بشره ـ دون وجل ـ بالجنة ودعا الله ان يهديه للصلاة ... وفي الوقت ذاته كان هذا التاجر الكبير قد اشترى كل الاراضي الحقلية القريبة من المسجد وهذه عمليته الوحيدة التي نفذها دون ضجيج .

على ان الفورة همدت بعد ذلك . فقد تبرع المتبرعون وانتهى الامر . اما المتطوعون « للاعمال الشاقة » فقد نظروا حولهم فلم يجدوا عيون الاعجاب تنصب عليهم ، اذ كانت البلدة بعيدة عنهم ، والناس ليسوا من الجنون الى حد يدفعهم للمشي نصف ساعة تحت الشمس، كيما يصلوا الى الجامع ، فيقولوا لمتطوع منهك بجبل الطين : « بارك الله بهمتك يا

اخا العرب » .. ثم ان احد عمال الاحذية ، بعد ان اشتغل يوما كـاملا لوجه الله « حتى تكسر التعب فوق فقرات ظهره » اقسم يمينا معظمـة بان بناء مصنع للاحذية ينسجم مع تعاليم الدين اكثر الف مرة من بناء هذا المسجد ، وخصوصا في هذه البلدة التي يموت الناس فيها من الجوع. وبذلك بردت الهمة العامة ــ ان صح التعبير ــ وبدأت معركة الاقتراحات . فقد قيل في اوساط المثقفين ــ الذين لا يزالون يعرفون القضية عـن طريق السماع ــ : حبذا لو اكملوا هذا البناء فجعلوا منه مدرسة ثانوية تؤوي طلاب المدينة ... وغامر احد الاطباء بسمعته الدينية ــ مرة اخرى ــ فنادى بضرورة تصميم البناء على شكل مشفى عام . اما العمال فكانوا يقولون : ان العقل يقتضي جعله مصنعا ضخما يمتص كل الايدي العاطلة عن العمل « ولكن اين العقل في هذه الايام » ... اما البناء ذاته فقد ظل كما هو ، او اضيفت اليه بضع حجرات منحوته . ثم اخذت الاعشاب تنبت فيه من جديد ، كسولة مطمئنة . وكادت المشاغل الاخرى تستنفـد كل ما يسمى باهتمام الناس . حتى كاد الشيوخ انفسهم ــ اعضاء لجنة الانقاذ ــ ينسون واجباتهم المسجدية الهامة ، وخصوصا الشيخ المسـؤول منهم عن صندوق التبرعات ، فقد وظف الاموال في بعض المشاريع الزراعية البعيدة زمانا ومكانا ، وسلاحه في عملية الجريئة هذه نظرية اقتصادية تقول : ان الاموال سوف تتزايد مع الزمن بفضل الانتاج الحلال « وهـذا من صالح المسجد حتما » . ولا داعي لذكر المجهودات الفكرية الضخمة التي بذلها الشيخ ــ أمين الصندوق ــ حتى ابتكر هذه النظرية واقنع رفاقه بها ... لولا ان حملة جديدة لصالح المسجد نشطت ابان الربيع الجديد. فقد دعا التاجر الكبير اعضاء لجنة الانقاذ الى اجتماع عاجل في بيته ، يوم خميس ، واقترح فيه ، بعد الديباجات المعروفة ، اقامة صلاة الجمعة في المسجد المهجور ودعوة الناس الى اداء الصلاة هناك . « انتم تدركون ولا شك النشوة التي ستغمر المصلين هناك ، تحت شمس الربيع الدافئة سيما وان الطريق جيئة وذهابا اصبح يشبه قطعة من الجنة . انا لا أشك يا سادتي ، في ان الهاما ربانيا هدى الشيخ الدرويش لاختيار تلك البقعة بالذات كيما يشيد فوقها بيتا لله . اذ علاوة على ارتفاع المنطقة ، وتنعمها بالهواء النقي الطازج ــ ان صح التعبير ــ فانها تشرف على اروع مناظر البلدة . ولو ان المصلين ادوا الفريضة هناك مرة ، اذن لاغرموا بالصـلاة هناك الى الابد .. وعموما فان » .

البلدة . ولو ان المصلين ادوا الفريضة هناك مرة ، اذن لاغرموا بالصلاة لا تصح في الخلاء » . قال ذلك بابتسامة محببة لم تلبث ان تيبست تحت شاربيه المتهدلين فوق لحيته البيضاء . فقد أجابه التاجر الكبير قائلا : صحيح انني لا اصلي ابدا ،وهذا يا سادتي من اكبر عيوبي التي سـتزول بفضل هدايتكم المستمرة ، ولكنني اعرف الفروض والواجبات والاركـان والاصول الدينية جميعا .. لقد سقفت قاعة الحرم بخيمة قطنية واسعة وملائمة تماما » .

آنذاك تململ الشيخ الذي هو امين الصندوق ، وتنحنح قليلا ثم قال : « بارك الله فيك . فانت ابو الفاجات الطيبة ... ولكنكم جميعا ، أيهـا السادة الافاضل ، تعلمون ان مسجدنا بعيد . وأنا شخصيا ، مثـلا ، افضل اداء فريضة الجمعة فى اقرب جامع الى بيتى ، من ان امشي واتعب طوال تلك المسافة كلها . هذا أنا ، فما بالكم بالناس ؟! خصوصا وانكـم تلاحظون ضعف ووهن نظرية « الثواب على قدر المشقة » فى هذه الايام !»

فقال التاجر الكبير : « لقد اعددنا كل شيء .. انني استاجرت اربع سيارات كبيرة لنقل المصلين من ساحة باب البلد الى مسجدنا الجديد .. واسمحوا لي يا اسيادي ان ادفع نفقات هذه السيارة من جيبي الخاص اذ انني لا ازال مقصرا بالنسبة اليكم » . ثم قيلت اشياء اخرى ليلتذاك.

وفي اليوم الثاني كان المنادي ينشر الخبر في اطراف المدينة ــ فالناس عندنا لا يقرأون ما ينشر في الصحف ــ . وما ان وصلت الشمـس الى كبد السماء ، حسب تعبير كتب الانشاء ، حتى كانت السيارات الاربع تنقل افواج المصلين الى المسجد الذي لم ينته بناؤه بعد . وفي الاسبوع الثاني نقلت السيارات افواجا حاشدة من المصلين وغير المصلين ــ فقـد كانت النساء اكثر من الرجال ــ . حتى اصبح الامر شبه هجرة موسمية كل اسبوع ، بما في ذلك من اطفال واطعمة وقضامة مملحة واراجيح ...

مر على هذه الحوادث اكثر من عشر سنوات حتى لقد كاد المواطنون ينسون هذه الصفحة المشرقة من تاريخهم الحديث ، وهم في هـذا النسيان محقون . فقد تغيرت الاحوال تغيرا تاما .. كانت الاراضي المحيطة بمسجد الدرويش عبارة عن حقول صخرية فقيرة لا تستدر انتباه احد ، ولا يهتم احد بأن يسأل عن سعر المتر المربع منها ، بل لم يخطر في بال اي من العقلاء ان يبني لنفسه بيتا في تلك المنطقة البعيدة ... امـا اليوم ، بعد عشر سنوات ، فقد ردمت الحفر ، وامتـدت الشـوارع ، وارتفعت الابنية ثلاثة طوابق واربعة ، واصبح ثمن المتر المربع من الارض اكثر من ثلاثين ليرة ... اما المسجد ذاته فيكاد يشبه العين المقلوعـة وسط هذه المنطقة النشيطة العمران ، حتى لقد غدا ملعبا للمتشاجريـن من الاطفال وهواة التراشق بالاحجار منهم بشكل خاص . وتعارف الناس على تسميته بالمسجد الذي لم ينته بعد .. على ان شخصا واحدا مـن الناس ، لا يزال يذكر باعتزاز ان ثمن المتر المربع في هذه المنطقة كان لا يزيد عن عشرة قروش .

شريف الراس
دمشق

من منشورات دار الآداب

الشاعر الكبير نزار قباني

في دواوينه الثلاثة النافذة

أنتِ لي

سامبا

طفولة نهد

في طباعة انيقة مترفة ستكون زينة لكل مكتبة